هـــــــديــــــــة

ريـاض بـيـــــــــدس *

(١)

وجد نفسَه يَدخل المبنى، حيث يقع الدكّان، مضطربًا نظر حولَه متفحِّصًا المكانَ بحذرٍ متوتّر، كأنّه يلوم نفسَه على عودته. كان كلُّ ما في المكان يضجّ بالضغط والرفض. أراد أن يتأكّد ممّا يراه، فألقى نظرةً سريعةً تتوسّل استئناسًا ما، إلاّ أنّه رأى وجوهًا تتفحّصه كدخيلٍ ظَهَر فجأةً فعكّر كلَّ الأجواء. ما الذي تسعى إليه؟ هل وجودي يضايقها إلى هذا الحدّ؟ وأراد أن يهوّن على نفسه، ففكّر أنّها ربما كانت تتفحّص ما ينعكس من عينيْه هو من قلقٍ وخوفٍ واضطراب، ذلك المزيج الذي كان ينتشر فيه وحوله ويجعل المكانَ كلَّه مشحونًا، وإلاّ فما سببُ كلّ هذا التوتر أصلاً؟ وتملّكه غيظٌ كبير: ما الذي جاء بي إلى هذا المكان مرةً أخرى؟ من يعود إلى مكانٍ كهذا بعد الخروج منه؟ لماذا ارتكبتُ هذا الخطأ الشنيع وعدتُ؟ يلعن أبو الهدايا وساعتها! لا توجد هدية في العالم تستأهل هذه العودة! أكان عليّ..؟

وتردّد في رأسه صوتٌ محاولاً تشجيعه: كان عليَّ أن أعود. إنّه المكان الذي كنتُ فيه صباحًا واشتريتُ منه هديةً ونسيتُها وجئتُ لآخذها. يكاد يضحك من نفسه. آخذها؟ وماذا لو طارت الهدية؟ وكيف تطير وقد بقيتْ في الدكّان؟

وعاد الضيق يُطْبق عليه بإحكام. ما الذي يجعل كلَّ ما في هذا المبنى صعبًا عليّ إلى هذا الحد؟ ما الذي اختلف منذ الصباح حتى الآن؟ أكان هذا المكان في الصباح أحسنَ حالاً ممّا هو عليه الآن؟ كلا، كلا، كلُّ ما في الأمر هو أنّي دخلتُ صباحًا بسرعة وخرجتُ على نحوٍ أسرع إلى درجةٍ أنّي نسيتُ الهديةَ التي دفعتُ ثمنَها عداً ونقدًا. صباحًا طرتُ خارجًا كأنّ شيطانًا تلبّسني، والآن يُحْكم هذا المكانُ حصارَه عليّ كأنّي وقعتُ في فخّه. ما الذي اختلف الآن؟ ما اختلف شيء أساسي؛ كلّ ما في الأمر أنّ الوضوح صار صارخًا الآن. الوجوه تقول كلَّ شيء بوضوح، وضوح عدائيّ سافر جارح لئيم. أليس من الأفضل أن تظلّ الغمغمة والغموض سائديْن هنا؟ يستحيل، كلُّ هذا الكمّ الهائل من النفور والرفض لا بدّ أن يَظْهر، وكذلك تبرُّمُ هذه القدس الغربية التي توتّرني، تجعلني مشدودًا كقوس نشّاب، وتجعل الأمورَ حادةَ الألوان إلى درجة تعشي الأبصار. ورغم نُور القدس القوي الصافي الذي لا مثيل له في كلّ المنطقة، إلاّ أنّ الألوان الحادّة هنا تختلط بقوة وتُتْعب عيونَ مَنْ لم يَعْتَدْها

ونظر مرةً أخرى، أو ربما كان في حالة تحديق مستمرّ إلى زبائن المقهى الذي كان يقع إلى جانب الحانوت، فشعر كأنّ بعض وجوه الزبائن تسأله إذا كان قادمًا إلى المقهى. لا لا، وأطلق ضحكةً خفيفةً شاحبةً مندحرة، وتحرّكتْ شفتاه بفحيحٍ أشبه بهمس أو حشرجة: «لا أنا لست قادمًا إلى المقهى.» وكاد في لحظة ضعف أن يدافع عن نفسه صارخًا أنّ المقهى **هو** الذي اعترضَ طريقي، إلاّ أنّه استدرك الأمرَ في اللحظة الأخيرة ولم يَفُهْ بهذه الجملة، بل تابع حشرجتَه التي خرجتْ مخشوشنة مجروحة:

ـ أنا قادم لآخذ الهدية التي اشتريتُها صباحًا من الدكّان المجاور. تعرفون أنّه يحدث أن تكون هناك بعضُ المقاهي إلى جانب الدكاكين، أو العكس، وأريد أن أعود بسرعة إلى المكان الذي جئتُ منه. هذا كلّ شيء ولا أعرف إذا كانت صاحبةُ الدكان ترغب في أن تراني مرةً أخرى. كذلك يوجد زبائن في الدكاكين أيضًا ربما كانوا لا يفضّلون دخولي. على كلّ، كما ترون، أريد أن أعود بسرعة من حيث أتيت.

وشعر أنّ الوجوه سألتْه باستغراب ما، أو باستهتار، عن المكان الذي جئتَ منه، أين يكون هذا المكان؟ هل يوجد مكان تجيء منه أنت إذ تبدو كأنّك خارج من لامكان، كأنّك قادم من مكانٍ ليس له أيّ وجود، كأنّك من العالم الخارجي؟ وكما لو تناهى إلى سمعه أيضًا أنّهم قالوا «كأنّك أنتَ لست موجودًا.» وأطلقتْ زبونتان ضحكةً صاخبةً بعضَ الشيء إثر سماعهما ما قيل أخيرًا. يشعر بفراغ داخلي عميق، ويتبادلون بعض النظرات المستريبة الساخرة، ويدخّن بعضُهم بشراهة، كأنّ وجوده استفزّ كل ما فيهم من غضب. واحتار. أيّ مكان؟ ما هذا السؤال؟ ما هذه الأحجيات؟ إنّه لا يحب الألغاز. هل كان يخطر في باله أن يسأل مثلَ هذا السؤال؟ هل يوجد أحد يأتي مِنْ مِنْ ممم (وكاد لسانُه يَعْلَق في فمه مردِّدًا الكلمات ذاتَها كأسطوانة مشروخة) هل يوجد أحدٌ يأتي من لامكان؟ هل تمزحون؟ إذن، من أين أنا؟ من

* ـ كاتب فلسطيني من الجليل

الحيط! (ويُطْلق ضحكةً خاويةً خائفة مهزوزة متداعية). إذا كنتم تقصدون من أيّ مكانٍ جئت إلى... (ونظر إلى وجوههم كأنّه يسألهم إذا كان عليه أن يجيب أم لا، فظلُّوا على صمتهم الذي كان يزداد ثقلاً عليه) لقد جئتُ من القدس الشرقية. المكان ليس قريبًا من باب العامود. كلُّكم تعرفون باب العامود. جئت من منطقة أبعد من هناك، في القدس الشرقية لا أعرف اسمَها جيِّدًا (ونظر إلى وجوههم خطفًا، فرآها على جمودها). أيوه، أنا جئت من القدس الشرقية، إذ كنت أزور أصدقاء. ولكم أن تتخيّلوا (تنطبع ابتسامةٌ صفراء على وجهه) إيش صار معي. صار معي شيء غريب جدّاً. ربما حدث مع أحدكم مرةً من المرات (وتراجع خائفا).

ما الذي أقوله؟ كيف أجرؤ على القول لهم إنّ ما حدث معي قد يحدث معهم؟ هذا قد يجرحهم، ويثير ثائرتَهم عليّ، وتقوم القيامةُ عليّ. هل أنا مجنون؟ (وبلع ريقه الناشف واستدرك):

ـ ما أقصده أنّ ما حدث معي اليوم لا يحدث معكم أنتم. إنّه شيء غير لطيف، لذا لا يحدث معكم، وإذا حدث معكم فإنّه يحدث بشكل آخر أطرف وألطف وأهون (وألقى نظرة على وجوههم خوفًا من أن يكون قد أغضبهم، فأدرك أنّه استطاع أن يصلّح الأمر بما قاله أخيرًا). ما إنْ وصلتُ شقةَ عائلة صديقي ودخلتُ سعيدًا فرحًا حتى اكتشفتُ هناك، ولكم أن تتخيّلوا ذلك، أنَّ الهدية التي اشتريتُها لهم صباحًا من الدكّان المجاور للمقهى (وحرّك يده مشيرًا إلى الدكان المجاور بسرعة) قد نسيتها. أنا قادم من مكان بعيد لزيارة هؤلاء الأصدقاء، والهدية شيء رمزي لكنّها ضرورية أحيانًا، إذ لا يعقل بعد سنين طويلة من الانقطاع عن زيارتهم أن أدخل بيتَهم من دون هدية. هم لطفاء جدّاً، لكنّ هذا سيُعتبر قلةَ ذوق منّي. هل صارت الصورةُ واضحةً، أمْ عليّ أن.. (وألقى نظرة على وجوههم، فظلت على ما كانت عليه) أمّا إذا كنتم تقصدون المكانَ الأصلي الذي جئتُ منه، فهذا أمر آخر (وبدا مرتجفًا بعضَ الشيء وهو يحاول أن يَسْبر ما تقوله وجوهُهم الجامدة التي تسمع ولا تُفْصح). يعني هذا موضوع آخر. أنا لستُ من هنا، كما أخبرتكم. أنا زائر هنا بس، فأنا لستُ من القدس الغربية ولا من القدس الشرقية، إذا كنتم تقصدون المكان الأصلي حيث ولدت، فأنا لستُ من هنا. أعتقد أنّ هذا يَظْهر واضحًا عليّ، إذ لا يخفى على أحد منكم أنّي لستُ من هنا.

يسأله صوتٌ جافّ حادّ ضَجِر: إذن مِنْ وين أنت؟ يصحو على الصوت غيرَ مصدّق أنّ هذا الصوت انبعث من الصمت الكثيف الذي كان مخيّما على المقهى: أنا، أنا (نظر إلى الوجوه ليتأكّد من أنّه خوطب من قِبل شخصٍ ما وأنّه حقّاً سَمِعَ صوتًا لا وهمًا، فهزّ أحدُهم رأسَه إشارةً إلى أنّه خوطب حقّاً، فأردف) أنا مش من هون أنا زائر مثلما قلت لكم من قبل إذا كنتم تقصدون المكان الأصلي فأنا من الجليل (وأسرع يكمل الكلامَ لئلاّ يَحْدث اضطرابٌ أو ما لا يتوقّعه) أيوه، من الجليل أكيد كلّكم تعرفون الجليل (وكاد يبتسم لولا أنّه أدرك في اللحظة الأخيرة حَرَجَ الموقف ودقّته، فكتم بسمتَه في داخله أملاً في أن تُطلَقَ مستقبلاً إذا تغيّر الجو)، من منطقة صغيرة من مناطق الجليل، منطقة هادئة جدّاً.

قاطعه أحدهم بصوت حادّ: وهل لك مكانٌ في الجليل؟ بدا عليه أنّه لم يفهم السؤالَ جيِّدًا، أو أنّ معناه غاب عنه تمامًا. كان سؤالاً غير متوقَّع ما الذي يعنيه؟ هل يجرؤ على أن يسأله ماذا يعني بسؤاله، أمْ يظلّ على صمته، أمْ يلتفّ على الموضوع ويحكي أيّ شيء لئلاّ يغضبوا وينفجروا ويحدث ما لا تُحمد عقباه؟ وشعر بقشعريرة تسري في جسده الذي تمنّى في هذه اللحظات لو أنّه تلاشى، ذاب، اختفى. ما الذي يريدونه منه؟ لقد جاء صباحًا إلى هنا، وهو يعود فقط من أجل أن يستردّ هديته التي نسيها. هذه كل الحقيقة ما الخطأ في الأمر؟ لو أنّه عرف أنّ كلّ ما يحدث الآن كان في انتظاره لما عاد. ما كل هذه العيون والوجوه والأسئلة التي لا تَرْحم؟ إنّه لا يريد المكوث بينهم. هل يعرفون هذا؟ حالَ استردادِهِ هديَتَهُ سيمضي فورًا من هذه البناية، سيختفي، سيزول من هذا المكان، لن يعود إليه، لن يدعس فيه مرةً أخرى، ولن يرى وجهه أيُّ واحد منهم. إنّه يَعِدُهم بذلك. وتساءل: هل اقول لهم كلّ هذا ليحلّوا عنّي؟ إنّ أسئلتهم صعبة. أهذا امتحان؟ ومن أجل ماذا؟ وكما لو أنّه غاب عن المكان وكل الحاضرين، إذ وصل إلى سمعه فجأةً صوتٌ يردّد: «دعوه وشأنه، إنّه

مخبوط في رأسه.» (وعلت أصواتٌ خافتةٌ جداً فيما تابع الصوت قوله). «إنّه يعتقد أنّه قادم من مكان ما في الجليل. هذا الشكل شكل الجليل؟ إنّه يهتور، ليس له أيّ مكان. إنّه يأتي من لامكان. ليس من شأننا أن نستكشف مكانَه، أو ندلّه عليه. دعوه يذهب في حال سَبيله. دعوه (واستنشق نفسًا عميقًا ونظر إلى وجه الشخص الذي كان يتكلّم، فرأى وجهًا مثقلاً بالتجاعيد والتقاطيع المليئة بالرفض والاشمئزاز، وتابع ذلك الوجه الذي ازداد انزعاجًا ورفضه وهو يخاطبه) خذ هديّتك وامشِ من هون!»

(٢)

في طريق عودته إلى القدس الشرقية، وحين اقترب من القدس الحقيقية التي يحبّها ويعرفها، أخذت الأماكنُ تتغيّر بحدة. ها هو يقترب من منطقة شقّة الأصدقاء، فيرى أنّ المنطقة تغيّرتْ أيضًا بسرعةٍ مذهلةٍ عمّا كانت عليه صباحًا، أو أنّه بالأحرى لم ينتبه إلى ذلك وساءل نفسه:

ـ هل كل هذا التغيير معقول؟ أَحدث هذا كلُّه خلال مدة زمنية قصيرة جداً؟ هل هو في القدس الشرقية، أم أنّه وصل إلى منطقة أخرى، مدينةٍ أخرى، بلدةٍ أخرى؟ ما الذي يجري هنا؟

لا إنّه ما زال في القدس. إذن كيف تغيّر هذا المكان كلّ هذا التغيير الجوهري؟ إنّه يرى شقة الأصدقاء، لكنّه في المقابل يرى جبلاً، وعلى هذا الجبل ثمة مستوطنةٌ كبيرةٌ جداً كانت تمتدّ وتصل السفحَ وتأخذ في الأسفل شكلاً دائريّاً كما لو أنّها كانت أنشوطةً تريد ابتلاعَ كلّ ما في المكان ولا تُبقي حتى على العمارة التي يستأجر الأصدقاءُ فيها شقةً! يتأمّل المستوطنة؛ إنّها تَكْبر وتمتدّ وتزحف وتذكّر: لقد رأى هذه المستوطنة من قبل، لكنْ ليس هنا. أين؟ ثم كيف غابت كلُّ هذه المستوطنة صباحًا عن ناظريْه؟ شيء لا يَرْكب على العقل! إذن، كيف حدث كلّ هذا؟ هل هذه نابلس أم القدس؟ يُمْعن النظر: لا إنّها ليست نابلس، وهذه المستوطنة تبدو كأنّه رآها في نابلس، لكنّها ها هي في القدس تمتدّ وتمتدّ. وإذا انتقلتْ، فكيف جرى ذلك؟ هل تُنقل المستوطناتُ من أماكنها؟ إنّها شبيهةٌ بإحدى المستوطنات على جبال نابلس، كأنّها مأخوذة من نابلس طبق الأصل.

تأمّل المستوطنةَ الكبيرةَ وهو يحمل الهديةَ مستغربًا، فسمع وراءه أصواتًا بالعربية. التفت صوب مصدر الأصوات، فرأى أولادًا يمرون بسرعة يحكون العربية. أراد أن يسألهم عن المستوطنة التي برزتْ فجأة والتي تُشْبه إلى حدٍّ كبير جداً إحدى مستوطنات نابلس، إلاّ أنّه خشي أن يهزأ منه الأولاد، إذ كان كل شيء حقيقيّاً واضحًا أمامه ألا يكفيه ما حدث له في المقهى أو على مقربة منه؟ تذكّر بعضَ وجوه المقهى الكالحة وسأل نفسَه: ما هذا اليوم؟ هل هو يومُ النحس العالمي؟ هل هو نحس مؤقت؟ لا، لا، إنّه نحسٌ مقيمٌ، لا يَحُول ولا يزول وارتاح إلى أنّه سيسأل صديقَه وزوجتَه؛ فهما أخبرُ وأكبرُ من هؤلاء الأولاد ومن أهل المنطقة أيضًا، ولربما طاولت التغييراتُ أيضًا أهالي المنطقة الأصليين وحاول إشغالَ نفسِه بأيّ شيء، فنظر إلى نفسه متفحّصًا ألاّ يكون قد أضاع الهدية، ففرح حين رآها بين يديه، ممسكًا بها بإحكام، وردّد بصوت هامس: يجب أن لا أنساها مرةً أخرى

تحرّك ناحيةَ شقة صديقه ببطء محاولاً أن يَهْضم ما رأى، لكنّه كان أشبهَ بالمهزوز. كيف يستطيع أن يصدِّق كلّ هذا؟ هل يوجد أحد قادر على ابتلاع كلّ هذه الكميات من الصدمات والبقاء ثابتًا في كامل وعيه؟ وظلّ على سيره مستديرًا بين حين وآخر، ملتفتًا صوب المستوطنة ليتأكّد ممّا يراه، إلى أن وصل مدخلَ العمارة عندها تنفّس الصعداء، إذ إنّ العمارة والشقة ما زالتا في مكانهما على حالهما. هذا شيء جيد، ردَّد لنفسه بصوتٍ عالٍ، يجب ألاّ يحدثَ مثلُ كلّ هذا التغيير. اعتلى درجات المبنى متعبًا منهكًا، يريد أن يترك كلَّ ظلاله المستنزفة وراءه، لكنْ من دون جدوى، إذ كانت تعاود التمردَ عليه. استرخى قليلاً، وأكمل سيرَه مفكّرًا: كانت هناك ثلاث أو أربع شقق. سار في الرواق، فألفى المبنى غريبًا بعض الشيء هل يدخله لأول مرة؟

عمل على نبذ هذه الفكرة من رأسه ولو بالقوة. فهذا المكان كان فيه صباحًا، لكنّ الغروب هو الذي يجعله مظلمًا بعضَ الشيء. ثم هناك غبش ينتشر في أرجاء المكان يجعل عينيْه تزوغان ولا تمسكان بأشياء المكان بوضوح تساءل بضيق لماذا لا يضيئون اللمبات الخارجيّة؟ ما هذا؟ هل يقتصدون؟ وسار متلمّسًا دربَه بحذر بحث عن الشقة. اللعنة هل نسيتُ رقمها؟ لا حاجة للأرقام؛ الشقق في هذا المكان ليست أكثر . (وحاول أن يعدّها) إنّها ليست كثيرة ولا تتعدّى أصابعَ اليد الواحدة. إذا كانت كذلك، فلماذا هذه الغرف الكثيرة المفتوحة؟ من أين هذه الغرف الكثيرة؟ وما هذا الغبار المنتشر فيها؟

يشيح بوجهه عن الغرف ينزعج من العتم الذي يسيطر على المكان كأنّه يغزوه بكلّ ما فيه من قوة. يقرّر محدِّثًا نفسَه جازمًا عليّ أن أدقّ أيّ باب من أبواب الشقق المغلقة وأسأل عن بيت الأصدقاء. أجل هذا ما يجب أن أفعله، وإلاّ فسأظلّ أدور في هذا المكان الشبيه بالمتاهة يقترب من باب الشقة الأولى ويدقّ بحذر. يُفتح البابُ ويسأل: «هل هذا البيت هو بيت.. ؟» فيسمع صوتًا أليفًا يقول له «هل تمزح؟» يصحو. آه إنّها زوجة صديقه. إذن ما زالوا في مكانهم، وما زالت الأمور معقولة بعض الشيء تضحك وهي تستقبله بحرارة وتسأله لماذا حاول أن يتظاهر بأنّه لا يعرف الشقة؟ هل كان يمزح؟ تبلبل: هل يَسْرد على مسامعها كلَّ ما جرى له؟ لا، الأفضل لا واستعاض عن ذلك بأن حدَّثها باختصار كيف عاد إلى القدس الغربية وأحضر الهدية ويَقْطن إلى الهدية التي بين يديه، فيضحك وهو يقدِّمها إليها، «الهدية» يردد غيرَ مرة كأنّه يحمل كنزًا تَشْكره على كرمه، وإنْ كان ذلك ليس ضروريّاً. يَخْرج صديقُه مبتسمًا يسأله الصديق، كما لو أنّه كان يستمع إلى كل ما جرى، «أما قلتُ لك أن تترك الهدية؟» ينفض رأسه كما لو كان يريد تنظيفه ويقول إنّ عودته إلى مكان الهدايا كان مرعبًا. يضحكون. فجأةً تتسلّل المستوطنة إلى ذاكرته. هل يسأل؟

يستدير الزوجان ويضعان الهدية جانبًا ثم يدعوانه إلى الخروج معهما. يتقدَّمه صديقُه وزوجتُه. أين يذهبون؟ بالكاد وصل! ربما كانا يتشاوران عن المطعم الذي سيذهبون إليه ليس مهمّاً. لا خوف الآن. في ساحة البيت الكبيرة يلتقي الزوجان بابنهما. لا ينتبه الابنُ إلى وجوده. يخبرانه عن الزيارة يضحك الابنُ وهو يقول لهما بنبرة يتخلّلها احتجاجٌ: «يعني هو ضيف عزيز، بَسْ ولا مرّة جاب معه هدية!» هل سمع شيئًا؟ راح يؤكّد لنفسه أنّه كان قد أحضر في السابق هدايا. لا ليس هو تمامًا بل إنّ صديقته التي كانت تزور معه عائلة الأصدقاء هي التي كانت تحضر الهدايا إذن كان قد أحضر بعضَ الهدايا، فلم هذا الكلام الذي ليس في محلّه؟ وأراد أن يحتجّ موضحًا أنّه جاء حاملاً هدايا هو وصاحبتُه من قبل، لكنّه تردَّد في اللحظة الاخيرة وصافح الابنَ كأنّه لم يسمعْ شيئًا منه.

الجليل